

:

(/ / / /)

. تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على نظرية ابن خلدون في الصنائع، من حيث مفهومها وأبعادها الاجتماعية والاقتصادية، والكشف عن القوانين الخاصة بها، كما جاء في كتابه المقدمة، فالصنائع عنده كل عمل يقوم به الفرد من أجل كسب الرزق سواء أكان هذا العمل يدويا أو فكريا، أي أنه يعتبر الحرف والمهنة جميعها من الصنائع، وهو ينظر إلى الصنائع نظرة وظيفية من حيث أهميتها في التقدم الحضاري للمجتمعات، ونظرة ديناميكية من حيث العلاقة التأثيرية المتبادلة مع المجتمع. ولقد أعطى ابن خلدون لمقولة العمل أهمية خاصة في المجال الاجتماعي والاقتصادي مقسما الأعمال حسب أهميتها ومجالاتها ومدى إشباعها لحاجات الأفراد. ومن جهة أخرى، أكد أن العمران البشري لا يقوم إلا على الصنائع وأن اختلافها أدى إلى اختلاف في العمران؛ مما دعاه إلى تقسيم العمران إلى عمران بدوي وعمران حضري، ومقدما الشروط اللازمة لقيام الصنائع وازدهارها. وأخيرا فإن هذه الدراسة تكشف عن إدراك ابن خلدون المبكر لسوسيولوجيا الصنائع؛ مما يجعل منه رائدا من رواد علم اجتماع العمل.

مقدمة

لا شك أن العلامة عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) يعتبر من العلماء الذين أرسوا دعائم علم العمران البشري، أي علم الاجتماع بالمفهوم الحديث، ويعد المؤسس الأول لهذا العلم نظرا لتحديد موضوعه ومنهجه وقوانينه، فهو أول من بين ذلك في كتابه المعروف بـ *المقدمة*، الذي تناول فيه جملة من الظواهر بالدراسة والتحليل من اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، وثقافية وغيرها من الظواهر التي تنتشر في العمران البشري. ولا شك أن لابن خلدون أصالته وتفكيره الخاص، ونظريته الخاصة متميزا في ذلك كله عن غيره من المفكرين.

ومن الجدير بالذكر أن الفكر الاجتماعي لابن خلدون له أهمية بارزة في تطوير الفكر الاجتماعي على المستوى العالمي، كما أن لدراسته أهمية في فهم الواقع الاجتماعي، وخاصة واقع المجتمع العربي الإسلامي الذي عاش فيه، وفي فهم الواقع الاجتماعي اليوم، نظرا لما قدّم من نظريات اجتماعية صائبة لها أهميتها ودلالاتها في الوقت الحاضر.^(١)

وإن من يلقي نظرة على تاريخ الفكر الاقتصادي، يتبين أن الأدبيات السابقة على ابن خلدون في المسائل الاقتصادية كانت من قبل الدراسات الأخلاقية، أو الأبحاث التشريعية، وأن علم الاقتصاد لم يرسخ كعلم إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وبداية القرن التاسع عشر على يد آدم سميث Adam Smith، غير أننا نجد أن ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي، يتنبه إلى الوقائع الاقتصادية ويوليها عناية خاصة، حيث أفرد لها قسما خاصا في *المقدمة*، وقام ببحث هذه الوقائع بحثا علميا متوصلا إلى قوانين تحكم تلك الوقائع، ومبين العلاقة الجدلية بين الظواهر الاجتماعية والظواهر الاقتصادية من حيث التأثير والتأثر بينهما، وخاصة في مجال الكسب والمعاش والصنائع وغير ذلك من النشاطات الإنسانية.^(٢) أي أن علم العمران عنده يفهم بمساعدة الاقتصاد الذي يعتبره المحرك للمجتمع من خلال ديناميكية العصبية عنده، والتي تعادل عند ماركس مقولة

(١) السيد الحسيني وآخرون، *تاريخ الفكر الاجتماعي* (الدوحة: دار قطري بن الفجاءة للنشر، ١٩٨٧م)، ص ٧٠.

(٢) الصغير بن عمار، *الفكر العلمي عند ابن خلدون* (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١م)، ص ٨٨.

:

الصراع الطبقي. فابن خلدون يربط الأحوال الاجتماعية بالحياة الاقتصادية ، وخاصة في تقسيمه للعمران إلى: العمران البدوي والعمران الحضري ، حيث يرى أن "اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهن من المعاش ، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي"^(٣).

لقد أدرك بنظرته العلمية المدققة أن الاختلاف في وسائل الإنتاج يؤدي إلى الاختلاف في علاقات الإنتاج - وفق التعبيرات السائدة في علم اجتماع العمل - وبالتالي إلى الاختلاف في العادات والتقاليد وأساليب التفكير والمعرفة. بمعنى أن الاختلاف في الصنائع يؤدي إلى اختلاف في الأوضاع المعيشية للأفراد ، فعادات وتقاليد المجتمع البدوي الذي يقوم بالرعي في الغالب تختلف عن عادات وتقاليد المجتمع الحضري الذي يمتنح الصناعة والتجارة. إلى جانب ذلك ، فإن اجتماع الناس للتعاون على إنتاج الضروري أولاً ثم الكمالي ثانياً.^(٤)

وانطلاقاً من اختلاف النحلة في المعاش يكون الاختلاف بين الأجيال ، وبوجه عام بين المجتمعات ، وهذا ما جعل ابن خلدون يصنف العمران البشري إلى صنفين كما تقدم ، أي أن هناك علاقة قوية بين طبيعة العمران ووسائل المعيشة ، ويظهر ذلك جلياً في عناوين متعددة من كتاب المقدمة. ولهذا اهتم ابن خلدون اهتماماً واضحاً بمسألة الصنائع ومكانتها في العمران البشري ، وقد أفرد لها فصلاً خاصة ، وأعطاهها مفاهيم معينة تناسب والأعمال السائدة في عصره آنذاك.

ومن الطبيعي أن الصنائع لا تقوم إلا على العمل ، فبواسطة العمل يحقق الإنسان إشباع حاجاته من جهة ، ويحقق التجمع الإنساني الذي يضمن حياة المجتمع من جهة أخرى. وقد ربط ابن خلدون الصنائع بالعمل الذي هو أيضاً سبب الكسب ، وهو الوسيلة لتحقيق المعاش. والأهم من ذلك أنه ربط الصنائع بالعمران البشري ، أو بالأحرى ربط

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ط ١ (القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٠م) ، ٢ : ٤٠٧ .

(٤) فاطمة بدوي ، علم اجتماع المعرفة بين الفكر الخلدوني والفكر الغربي (بيروت: جروس - برس ، د. ت.) ، ٤٩ .

الصنائع بالعمران الحضري حسب تعبيره، وقدم نظرية خاصة في ذلك مفردا لها جملة فصول في كتابه *المقدمة*. وفي هذا المجال فإن البحث سيحاول التعرف على هذه النظرية، ومدى أهميتها في مجال علم اجتماع العمل من خلال النصوص الخلدونية كما سيأتي توضيحه لاحقا.

إن هذه الدراسة تهدف إلى التعرف على سوسيولوجيا الصنائع عند ابن خلدون للكشف عن مدى مساهمته في علم اجتماع العمل لكونه من المفكرين الأوائل الذين تنبهوا إلى أهمية الصنائع، وذلك في القرن الرابع عشر الميلادي، فهو - كعالم اجتماع - لم يهمل دور الصنائع في المجتمع وأهميتها في إحداث التغيير الاجتماعي، وفي تقدم المجتمعات، وبناء حضارتها، وهي مقولة أيدها كثير من المفكرين الاجتماعيين.^(٥)

وتأتي أهمية الدراسة في كشفها عن الأبعاد الاجتماعية للصنائع عند ابن خلدون، وتبين مدى أهمية أفكاره في مجال علم اجتماع العمل. ومن جهة أخرى، تأتي أهمية الدراسة أيضا في تركيزها على ربط مقولة العمل بالصنائع انطلاقا من مفهومه الإسلامي للعمل بوجه عام، بالإضافة إلى كون الدراسات العربية التي تناولت أفكار ابن خلدون الاجتماعية والاقتصادية لم تتعرض - حسب علمنا - لمفهوم ابن خلدون للعلاقة المتبادلة بين الصنائع والمجتمع وللقوانين التي توصل إليها، وخاصة في ظل ظهور علم اجتماع العمل مع بداية القرن العشرين.

ومن الجدير بالذكر أن علم اجتماع العمل يعد أوسع مجالا من علم الاجتماع الصناعي الذي يقتصر على دراسة الظواهر الاجتماعية الناتجة عن الصناعة، في حين أن علم اجتماع العمل يهتم بدراسة جميع أوجه العمل الإنساني في المؤسسات الاجتماعية حسب تعبير جورج فريدمان^(٦) George Friedmann. وبمعنى آخر يدرس جميع الأعمال المختلفة وآثارها في المجتمع من أجل التوصل إلى قوانين.

(٥) Tony Watson, *Sociology, Work and Industry* (London: Routledge & Kegan Paul, 1980), 20-35.

(٦) Odile Benott-Guilbot, "Sociology of Work," in *Encyclopedia of the Social Sciences* (New York: The Macmillan Company & The Free Press, 1968), 6:230.

:

وعليه ، فإن هذه الدراسة تنطلق من أن جميع أشكال العمل الإنساني ، سواء أكان العمل صناعيا ، أم زراعيا ، أم تجاريا ، أم تعليميا... هي مجالات للدراسة في علم اجتماع العمل ، وهذا المفهوم ينسجم مع مفهوم ابن خلدون للعمل والصنائع بوجه عام - كما سيأتي توضيحه لاحقا .

وتبين هذه الدراسة أن مقولة الصنائع وسوسيولوجيتها عند ابن خلدون لا تقل أهمية عن مقولاته الرئيسة في العمران والعصبية والدولة وغيرها ، حيث أفرد لها جانبا مهما في المقدمة . وتبقى هذه الدراسة محاولة للكشف عن جانب من جوانب الفكر الخلدوني الذي يستدعي مزيدا من الدراسات العلمية الجادة في هذا المجال .

يتميز ابن خلدون بمفاهيمه الخاصة كما جاءت في كتابه المقدمة ، وهي ترتبط بالحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات بوجه عام ، وبسوسيولوجيا الصنائع بوجه خاص . وفي هذا المجال يمكن تحديد تلك المفاهيم كما جاءت عند ابن خلدون وهي :

يعرف ابن خلدون المعاش بأنه عبارة عن "ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله" ويورد أربعة أصناف للمعاش مستشهدا بما ذكره المحققون من أهل الحكمة والأدب فقد قالوا: "المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة."^(٧) غير أنه يعترض على الإمارة فيرى أنها ليست بمذهب طبيعي للمعاش بينما الفلاحة والصناعة والتجارة هي الوجوه الطبيعية للمعاش ، غير أن هناك من يرى أن المعاش هو مقدار ما يسد الحاجة والضرورة لدى الإنسان .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٨٩٩ .

ويعرف الرزق بأنه "الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعتة على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته." (٨) ويلاحظ من ذلك أن مفهوم الرزق يقتصر على استهلاك المال، أي الانتفاع به، وإذا لم يتم الانتفاع به يسميه ابن خلدون كسبا، ويستشهد بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما لك من مالك ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت." ويلاحظ من ذلك أن الرزق هو كل ما ينفقه الإنسان من أموال في سبيل المنفعة. أما المال غير المنفق "المدخر" فلا يسميه رزقا.

هو كل ما يحصل عليه الإنسان ويمتلكه. وكل ما ينتفع به أو لا يحدث له انتفاع به كتوريث المال للأبناء. ويضع ابن خلدون لتحصيل الرزق وكسبه عدة طرق هي: (٩)

- ١ - إما أن يكون بأخذه من يد الغير، وانتزاعه بالاقتدار عليه، ويسمى مغرما وجباية.
- ٢ - وإما أن يكون عن طريق الاضطهاد للحيوانات البرية والبحرية، أو يكون عن طريق الحيوان الداجن أو النبات، ويسمى ذلك فلحا.
- ٣ - وإما أن يكون عن طريق الأعمال الإنسانية في مواد معينة، وتسمى الصنائع من كتابة وتجارة وخطابة وغيرها، أو في مواد معينة كالخدمات مثلا.
- ٤ - أو عن طريق التجارة من خلال بيع البضائع وعرضها.

ويلاحظ أن ابن خلدون يستعمل مصطلحي الكسب والمعاش مترادفين حيث يحل أحدهما مكان الآخر، فبعد أن يحدد وجوه الكسب، ويعرضها كما سبق، يشير إلى أنها وجوه للمعاش وأصنافه. (١٠)

(٨) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٩٥.

(٩) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٩٨ - ٨٩٩.

(١٠) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٩٩.

:

وعموما فإن أساس الكسب عند ابن خلدون، هو العمل، حيث يقرر قائلاً:
"فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب وتممّول، لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل
الصناعات فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن، فلا بد فيه من العمل
الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع."^(١١)

أطلق ابن خلدون على ما يعرف اليوم بعلم الاجتماع مصطلح العمران البشري
الذي يعني الاجتماع الإنساني الذي يتم بـ "التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس
بالعشير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش،"^(١٢) ويعني به هنا
الحياة الاجتماعية وما ينتج عنها أو يرافقها من مظاهر اجتماعية واقتصادية وثقافية.^(١٣)
ويرى إيف لاكوست Yves La Coste أن مفهوم العمران عند ابن خلدون مشتق
من الأصل العربي "عمر" الذي يعني العيش مع الآخرين وزراعة الأرض والسكن ... وأن
معناه معقد جدا، حيث يعني به الأرض والسكان والدولة إلى غير ذلك،^(١٤) بمعنى أن
العمران هو كل ما يحيط بالإنسان، وما ينتج منه مع الآخرين، فهو يتناول القضايا
الديموغرافية والاقتصادية، كما يعني النشاطات الاجتماعية والسياسية والثقافية.^(١٥)

(١١) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٩٦.

(١٢) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٤١٧.

(١٣) محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون؛ العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي
(الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ١٩٨٤م)، ٤٥٧.

(١٤) Yves La Coste, *Ibn Khaldon; The Birth of History and the Past of the Third World* (London: Vernon

Edition, 1984), 93.

(١٥) مصطفى وتي، علم الاجتماع العمراني (حلب: مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٩٨٤م)،

ويلاحظ من جملة المفاهيم السابقة أن العمران هو ما ينتج عن اجتماع الأفراد أو هو الاجتماع البشري ، وهذا ما يتفق مع موضوع المقدمة نفسها ، وبهذا يكون العمران كل ما ينتجه الأفراد داخل حياة اجتماعية.^(١٦)

وعموما فإن العمران هو كل ما ينتج عن اجتماع الأفراد ، ويؤدي إلى تكوين المجتمعات مع التركيز على طبيعة هذا الاجتماع ونوعه ، وسلوك الأفراد فيه في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجغرافية والديموغرافية ، وما يتشكل من بناءات ونظم ترتبط بالمرحلة الاجتماعية. لذا يقسم ابن خلدون العمران البشري إلى نوعين هما : العمران البدوي والعمران الحضري ، ويقوم هذا التقسيم على أساس طبيعة البيئة التي يعيش فيها أهل البادية وأهل الحضر ، وما تفرضه هذه البيئة من أساليب معاشية. ولم يفرق بين أهل الريف والبدو ، أو بالأحرى بين سكان القرى وسكان البادية ، بل اعتبرهما فئة واحدة هي فئة البدو مقابل فئة الحضر سكان المدن التي تمثل القطب الثاني في تقسيمه للعمران البشري ، علما بأنه قد ميز بين حياة الريفيين وحياة البدو باختلاف وسائل الإنتاج وأساليب المعيشة.^(١٧)

إن التفريق بين العمران البدوي والعمران الحضري مبني على طبيعة الحياة الاقتصادية ووسائل العيش ، حيث يعتمد أهل البادية في إنتاجهم الاقتصادي على الماشية ، والزراعة ، فيما يعتمد أهل الحضر على الصناعة والتجارة ، أي أن اختلاف نخلتهم في المعاش بتعبير ابن خلدون يؤدي إلى اختلاف الأجيال. وقد بين ذلك ابن خلدون في فصل بعنوان : " أن أجيال البدو والحضر طبيعية " فيرى أن التباين بين البدو والحضر إنما هو تباين في درجة الصناعات واختلاف طرق المعاش بوجه عام ، أي أن الاختلاف في طرق المعيشة يؤدي إلى انقسام العمران (المجتمع) إلى بدو وحضر ؛ فاختلاف الأعمال يؤدي إلى

(١٦) علي أومليل ، " ابن خلدون والتجاوز الممكن ، " في أعمال ندوة ابن خلدون (الرباط : كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ١٩٧٩م) ، ٣٢٩.

(١٧) يفهم من خلال تفسيره للعمران البدوي أنه لا يعني به الحياة في الصحراء وحسب ، كما يعتقد بعض المفكرين ، وإنما يعني به أيضا الحياة في القرية. انظر : وتي ، علم الاجتماع العمراني ، ٥٨.

:

الاختلاف بين الأجيال ، ويقصد بذلك الاختلاف بين المجتمع البدوي والمجتمع الحضري. ومن المعروف أن المجتمع البدوي يكتفي أفراده بالضروري في معيشتهم ، في حين إذا اتسعت أحوال المتحليين للمعاش ، وزاد الغنى ، فإنهم يستكثرون من الأقوات والملابس وغيرها ، وتنوع صناعاتهم ، فهؤلاء هم الحضري.^(١٨)

وفي ضوء ما تقدم ، يتبين أن الفرق بين العمرانين يظهر في أسلوب الحياة وطبيعة النشاط الاقتصادي ، أي أن العامل الأساسي الذي يستند إليه التجمع الإنساني هو طبيعة النشاط الاقتصادي ، وبمعنى آخر نتاج الصنائع.

-

تعني الحضارة في اصطلاح ابن خلدون ، الترفن في الترف ، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش ، والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ، أي أنها أحوال عادية زائدة عن الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفاه ، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر ، وهي تعتمد على كثرة الصنائع والتفنن فيها ، وتنوع استخدامها لدى المجتمع ، وخاصة المجتمع الحضري.^(١٩) وسيأتي توضيح ذلك.

ينطلق ابن خلدون في نظريته إلى العمل من منظور إسلامي ، فيفضل العمل على التأمل والانعزال ، إذ إن العمل المنتج هو العمل الذي يعود على صاحبه وعلى مجتمعه بالفائدة. ومن جهة أخرى يؤكد على أهمية توزيع الأعمال ، والأعمال الجماعية التي تقوم على ظاهرة تقسيم العمل ، مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج وإلى إشباع الحاجات ، وإلى الترف وعوائده ، أي إلى الغنى ، فبكثرة الأعمال تكثر المكاسب ، والتعاون هو أساس زيادة الكسب ، وأنه كلما زاد الترف تبعاً للكسب زادت الحاجات وتنوعت الأعمال ، فتتنشط

(١٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ٢ : ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٨٧١ - ٨٧٢ .

الصنائع ، ويتضاعف الكسب ثانية ، ويزداد الترف ، وذلك أن تنوع الأعمال وزيادتها حسب رأي ابن خلدون يؤدي إلى ازدياد الترف ، كل ذلك نتيجة تقسيم العمل ، والتخصص فيه ، انطلاقاً من مبدأ التعاون الناتج عن كثرة السكان ، كما هو سائد في العمران الحضري. وبالمقابل فإن قلة السكان تعني قلة الأعمال. وفي هذا يقول : "واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ، ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها ، أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية." (٢٠)

ويلاحظ من ذلك أن ابن خلدون يكون قد سبق في نظريته حول العمل والسكان كلا من سبنسر Spencer ودوركايم Durkheim وهو يرى أن التصنيف الحقيقي للأعمال يجب أن يكون بمقياس الإنتاج المشاهد للموسم ، وبموجب ذلك يقسم الأعمال إلى نوعين وفق المعاش الحاصل منهما ، وقد سمى أحدهما معاشاً طبيعياً ، والآخر غير طبيعي. (٢١) وقد وضح ذلك مستشهداً بما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحري وغيره ، "فإنهم قالوا: المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة ، فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها ... وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش." (٢٢)

ويتبين من تصنيفه للأعمال أنه ينطلق من مدى تحقيقها للنتائج الملموسة. ففي المعاش الطبيعي يحصل للإنسان الرزق فيها عن طريق العمل ، والجهد الكبير المبذول في تحصيله ، بينما يرى أن المعاش غير الطبيعي لا يحصل فيه ذلك العمل ، والجهد المبذول في المعاش الطبيعي.

ومن جهة أخرى يقسم الأعمال حسب أهميتها إلى نوعين : أعمال أصلية ، وأعمال زائدة حسب تعبيره ، والمقصود هنا الأعمال الضرورية ، والأعمال الكمالية ،

(٢٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٨٩٧ .

(٢١) عبد المجيد مزبان ، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها في الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي :

دراسة فلسفية اجتماعية (الكويت : مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ، ١٩٨١م) ، ٣٤٣ .

(٢٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٨٩٩ .

:

وذلك وفق أهمية إشباع حاجات الأفراد؛ فالأعمال الأصلية هي التي تختص بالمعاش، والأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى، وفي هذا يقول: "الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش".^(٢٣) ويؤكد ابن خلدون على فائدة التعاون في الأعمال حيث يقول: "قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافا".^(٢٤)

ولا شك أنه قد أضفى على العمل أهمية كبيرة لعلاقته بالإنتاج، وبالتالي في تحديد قيم الأشياء المنتجة، أي أنه قد أبرز أهمية عنصر العمل وصوره في تحديد قيم الأشياء المنتجة، وأن كثرة الأعمال هي سبيل الثروة.^(٢٥) ويؤكد على ذلك قائلا: "فقد تبين أن الفوائد والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية".^(٢٦) لقد اكتشف ابن خلدون بذلك دور العمل كأساس للقيمة لأول مرة في تاريخ الفكر الاقتصادي والاجتماعي، أي أنه سبق غيره من المفكرين في هذا المجال، ولا شك أنه كان يعبر عن معطيات مجتمعه في ذلك العصر، في ظل التبادل السلعي البسيط بين الأفراد، وقد جاء تأكيده في مواضع عدة من المقدمة منها: "الأفعال هي سبب الكسب"، "إن المكاسب إنما هي قيم الأعمال"، "لا بد من أعمال إنسانية في كل مكسوب ومتمول"، "الرزق والكسب إنما هما قيم أعمال أهل العمران".

ويستدل من هذه المقولات أن ابن خلدون ينجح إلى رأي القائلين بأن قيم الأشياء تختلف حسب ما بذل فيها من عمل، وبذلك فهي تتفق مع نظرية المحدثين اليوم القائلين

(٢٣) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٦٠.

(٢٤) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٥٩.

(٢٥) ابن عمار، الفكر العلمي، ٩١.

(٢٦) ابن خلدون، المقدمة، ٨٩٧.

بنظرية العمل في تحديد قيم الأشياء ، أي أنها على عكس نظرية المنفعة التي تحدد قيم الأشياء بمدى ما تحققه من منفعة للإنسان.

ويقرر من ناحية أخرى ، انطلاقاً من مقولته السابقة ، أن العمل أساس الثروة وكثرتها. ويشير إلى قضية مهمة وهي أن العمل يتبع قانون العرض والطلب ، حيث يقرر أن قيمة العمل ترتفع عند زيادة الطلب مما يفسر ارتفاع أجور العاملين في المدن المتفجرة العمران.^(٢٧) وقد ذهب إلى أن أسعار السلع تزداد في الوسط الحضري عن الريفي ، وذلك بسبب كثرة السكان وازدياد مطالبهم نتيجة الترف ، وأن التخصص في الأعمال يتبع أنماط المعيشة ، مما يفسر انتشار حِرَفٍ معينة في الحضر دون الريف ، ويلمح بأن انقسام أوجه النشاط إلى مجموعة من الحرف إنما هو أساس التعاون بين الأفراد وتضامهم ، ونظريته هنا تشبه نظرية التضامن العضوي التي قال بها دوركايم فيما بعد.

ومن جهة أخرى ، يرى ابن خلدون أن العمل في الصنائع هو أساس الحياة الاجتماعية ، وهو يزيد بزيادة السكان ويقل بقلتهم ، فالمجتمعات الكثيرة السكان تكثر فيها الأعمال ، مما يؤدي إلى تحضرها ورفاهيتها. أما المجتمعات قليلة السكان ، فتكون رفايتها قليلة لقلّة أعمالها. هذا وقد امتدح العمل في الصناعة حيث ربط بينها وبين تقدم العمران - كما سيأتي توضيحه لاحقاً ، أي المجتمع الإنساني ، فهي تنشأ وتزدهر بنشأته وازدهاره ، فبازدياد مطالب العمران - أي مطالب الأفراد - تزداد حاجاتهم إلى حِرَفٍ جديدة وصناعات من أجل سد حاجاتهم الضرورية والكمالية.

وبوجه عام ، يلاحظ أن ابن خلدون يؤكد أن كثرة الأعمال الإنسانية وتنوعها يؤدي إلى تقدم المجتمع ، وزيادة رفايته ، وبتعبيره "يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية" ، غير أن ابن خلدون ، وتلك خاصية لديه ، يرى أن البذخ والإفراط في الترف يشير إلى أعلى درجات التقدم الممكنة ، كما يشير أيضاً إلى نهايته وانحداره.

(٢٧) سعيد محمد رعد ، العمران في مقدمة ابن خلدون (دمشق : طلاس للترجمة والنشر ، ١٩٨٥م) ، ٢٦٤.

:

لقد أدرك أن طبيعة العمل تختلف باختلاف البناء الاجتماعي ، ويظهر ذلك في التمايز بين العمران البدوي والعمران الحضري ، وأن كثرة الإنتاج تأتي من خلال التعاون بين الأفراد ، مما يؤدي إلى التضامن فيما بينهم.

ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون لا يفصل العمل الفكري عن العمل اليدوي ؛ لكنه يرى أن المعرفة النظرية وإن كانت مفيدة ، إلا أن المعرفة العملية التي تأتي عن طريق تطبيق المعرفة النظرية هو ما يجب أن يهتم به الإنسان ، لأن ممارسة العمل وتكراره يصقل الملكة ويثبتها.^(٢٨)

-

يشير مصطلح الصنائع^(٢٩) في اللغة إلى أي صنعة كما جاء في لسان العرب : الصنائع مفردها صنعة ، وهو ما اصطنع من خير ، أي أنها عمل خير يقدم للآخرين.^(٣٠) والصناعة هي حرفة الصانع ، وعمله الصنعة ، ويقال رجل صناع أي حاذق العمل ، والصنعة عمل يؤدي إلى كسب الرزق سواء باليد أو باللسان.^(٣١)

ويلاحظ من المفهوم اللغوي للصنائع أنها كل عمل يقوم به الإنسان من أجل كسب الرزق سواء أكان العمل يدويا أو فكريا.

ويؤكد محمد الجابري على هذا المفهوم بأن الصناعة هي كل مهنة أو حرفة ، ولا يقصد بالصناعة الأعمال اليدوية وحدها كالحياطة مثلا ، بل يقصد بها أيضا الأعمال الفكرية ، ويستشهد هنا بمقولة مصطفى عبدالرازق بأن الصناعة ملكة يقتدر بها على استعمال موضوعات ما لنحو غرض من الأغراض صادر عن البصيرة بحسب الإمكان.^(٣٢)

(٢٨) بدوي ، علم اجتماع المعرفة ، ٥٢ .

(٢٩) الصنائع مفردها الصناعة ، والشائع جمعها على صناعات . انظر : الجابري ، فكر ابن خلدون ، ٤٤٩ .

(٣٠) ابن منظور ، لسان العرب (بيروت : دار صادر ، ١٩٨١م) ، ٨ : ٢١٢ .

(٣١) ابن منظور ، لسان العرب ، ٨ : ٢٠٩ .

(٣٢) الجابري ، فكر ابن خلدون ، ٤٤٨ - ٤٤٩ .

وأما مفهوم الصنائع عند ابن خلدون فهو مفهوم واسع ، حيث يعتبرها كل ما يقوم به الإنسان من عمل منتج ، ويقصد بها الحرف والمهن على السواء ، ويعرفها قائلاً : "هي ملكة في أمر عملي فكري ، ويكونه عملياً هو جسماني محسوس . والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل ، وتكراره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته... وعلى قدر جودة التعليم ، وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته."^(٣٣)

وبهذا المعنى يفسر ابن خلدون الصنائع ، ويوسع مفهومها لتشمل الأعمال الفكرية واليدوية ، وليس العمل الصناعي المقتصر على الآلات وحدها كما يتبادر إلى الذهن. وتقسيم الصنائع عند ابن خلدون متنوع ، فهو لا يكتفي بتقسيم واحد كما سنرى ، وذلك لكثرة الصنائع ، ويقسم الصنائع في البداية إلى قسمين هما :

١ - الصنائع البسيطة : وهي التي تختص بالضروريات للإنسان ، ولذلك تأتي

أولاً .

٢ - الصنائع المركبة : وهي التي تختص بالكماليات ، وتأتي ثانية .

وفي هذا يقول : "إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب ، والبسيط هو الذي يختص بالضروريات ، والمركب هو الذي يكون للكماليات ، والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً ، ولأنه يختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله."^(٣٤)

ويقسم الصنائع مرة أخرى إلى قسمين :

١ - ما يتعلق بالمعاش الضروري والكمالي : كالحدادة والنجارة والحياكة وغيرها .

٢ - ما يتعلق بالفكر الذي هو خاص بالإنسان ، كالوراقة وتعليم العلم والغناء ،

وغير ذلك .

وفي هذا يقول : "وتقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو

غير ضروري ، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع."^(٣٥)

(٣٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٢٣ .

(٣٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٢٣ .

:

ويستنتج من ذلك أن ابن خلدون ينطلق من تقسيمه للصنائع حسب نوع العمل وهما: العمل اليدوي، والعمل الفكري، والأول متقدم على الثاني، كما يضيف نوعاً آخر من الصنائع أسماه "بأمهات الصنائع" ويقصد بها الصناعات الشائعة التي يعمل بها كثير من الأفراد، كالفلاحة مثلاً، وهي ضرورية لإقامة العمران الحضري.

ثم يقدم ابن خلدون تقسيماً آخر يتضمن التقسيم السابق إلا أنه أكثر منه تفصيلاً، حيث يقسمها إلى ثلاثة أنواع هي: صنائع ضرورية وصنائع مترفة (كاليات) وصنائع شريفة بالموضع^(٣٦) وهذه الأخيرة يقصد بها مهنة التوليد والطب، والتعليم وغيرها؛ ومعنى شريفة بالموضع لديه ما تواضع عليه الناس وعدّوه شريفاً. ويرى أن الصنائع تحتاج إلى المهارات اليدوية والخبرة والعلم. ويعتبر الصنائع من ضرورات العمران، كما يرى أن اختصاص بعض البلدان بصنائع معينة دون غيرها، لحاجتهم لمثل تلك الصنائع وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر، فيقومون عليه، ويستبصرون في صناعته، ويختصون بوظيفته ويحملون معاشهم فيه ورزقهم منه.^(٣٧)

وبوجه عام يتبين تنوع نظرة ابن خلدون للصنائع، فلم يعتمد تصنيفاً واحداً لها - كما تقدم - إلا أن وجهة نظره - فيما يبدو لي - تميل أكثر نحو تقسيم الصنائع إلى قسمين: الصنائع البسيطة والصنائع المركبة، وهذا ما سيعتمده الباحث في التحليل والمناقشة.

يرى ابن خلدون أن الصنائع لا بد لها من العلم، والتجربة حتى تكثر وتتقدم، وهذا المعنى ينسجم مع فهمه للصنائع بأنها ملكة في أمر عملي فكري، ويعلل مفهومه للملكة بأنها تحصل من تكرار الفعل مرات حتى ترسخ صورته، فبالمعاينة والمشاهدة تكون

(٣٥) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٢٤.

(٣٦) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٣١.

(٣٧) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٨٤.

الملكة أقوى من نقل الخبر والعلم ، وبمعنى آخر تحتاج الصنائع إلى معرفة نظرية وتطبيقية ، كما أن المعرفة بالصنائع لا تأتي دفعة واحدة ، وإنما تحتاج إلى تكرار من أجل ترسيخها ، يقول : " وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة ، وحصول ملكته." (٣٨)

وقد بين أن تعلم الصنائع يختلف في الدرجة من صناعة إلى أخرى نظرا لأن منها البسيط ومنها المركب ، ومن جهة أخرى ، يضع ثلاثة شروط للقيام بالصناعة وهي : أولا : القدرة على فهم الفعل ، وثانيا : القيام بالتدريب العملي ، أي الممارسة العملية ، وثالثا : إتقان المعلم لصنعتة .

ومن الملاحظ أنه إذا طبقت هذه الشروط على عمل الطوائف الحرفية المعروفة في الشرق والغرب - في عصر ابن خلدون - آنذاك ، تصبح مجمل أفكاره واقعية ومطابقة لما يجري في ذلك الوقت ، مما يؤكد أن صفة الواقعية ملازمة لفكر ابن خلدون . فدراسة الواقع هي من خصائص عالم الاجتماع .

كما أن مسألة العلم والتجربة التي أشار إليها سابقا تؤدي إلى الاختراع والاكتشاف وبالتالي إلى تقدم المجتمع ؛ وهذه حقيقة أخرى مؤكدة اليوم ، فالمجتمعات الصناعية هي التي تتميز بالمعرفة العلمية في هذا المجال .

ويؤكد من جهة أخرى ، أن الصنائع لا تستجد دفعة واحدة وإنما بالتدريج وهي تتزايد بتزايد التقدم الحضاري. (٣٩) كما أن الإنسان لا يستطيع أن يجيد إلا صناعة واحدة في حياته على الأغلب ، " فمن حصلت له ملكة في صناعة قل أن يجيد بعدها ملكة أخرى " (٤٠) حسب تعبير ابن خلدون ، الذي أكد على أن التخصص الدقيق في العمل من شأنه أن يزيد في إتقان العمل لدى العامل مع طول المدة ، وبالعكس فعدم التخصص في ممارسة المهنة يؤدي إلى عدم إتقانها ، ويؤكد ذلك قائلا : " فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم

(٣٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٢٣ .

(٣٩) رعد ، العمران في مقدمة ابن خلدون ، ٢٧١ .

(٤٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٣٠ .

:

ما بعدها أخرى ، ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الإجازة حتى أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة .. إلا في الأقل النادر من الأحوال." (٤١) والسبب في ذلك أن صفات الملكة الرغبة والقدرة على عمل شيء ، وامتهان مهنة معينة ، فإذا تعزز ذلك فيصعب على صاحب الملكة أن يجيد صناعة أخرى غير الأولى ، ويوضح الأسباب الكامنة وراء ذلك قائلا : "ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه ، فلا يجيد من بعدها ملكة التجارة ، أو البناء ... والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدهم دفعة." (٤٢)

ومن جهة أخرى ، يرى ابن خلدون أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب ؛ وذلك انطلاقا من إدراكه أن كل صناعة مهما كانت تحتاج إلى تفكير ، وإلى تعقل ، فهي أثناء الممارسة تزيد من تفكيره وتعقله ، بمعنى أن الفرد الصانع حين يمارس صناعته يزيد من إدراكها وإتقانها ، أي أن التخصص في العمل يزيد في إتقانه ، وهذه المقولة تتفق مع ما يراه دوركايم في ظاهرة تقسيم العمل وآثارها الإيجابية. ويخص ابن خلدون هنا صناعة الكتابة والحساب فهما تعمقان التفكير ، والاستدلال في المجردات ، ويقول : "وبيانه أن في الكتابة انتقالاً من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال ... إلى المعاني التي في النفس ، وذلك يحدث دائما ، فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات... ويحصل به قوة فطنة ، وكياسة في الأمور لما تعود من ذلك الانتقال." (٤٣)

ويتبين من جملة ما سبق ، أن ابن خلدون قد أدرك أهمية الصنائع من حيث إنها تكسب صاحبها عقلا من خلال الممارسة لها وإدراك قوانينها ، مما يؤدي إلى الابتكار فيها ، والتفنن في أدائها ، وهي تؤدي بالتالي إلى زيادة العمران ، والتقدم نحو الحضارة ، وقد بين

(٤١) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٣٠ - ٩٣١ .

(٤٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٣٠ .

(٤٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٧٢ .

أسباب تقدمها أو زوالها، وذلك حسب رأيه إنما يعود إلى كثرة السكان أو قلتهم، كما سيأتي توضيحه.

تبين مما سبق أن للصنائع مفهوما وخصائص محددة عند ابن خلدون ذات أبعاد اجتماعية تدرج في مجالات ما يعرف اليوم بعلم اجتماع العمل، وقد قدم مفاهيم دقيقة للصنائع، وهي تؤثر وتتأثر بالمجتمع، فهناك علاقة قوية بينهما. وينظر ابن خلدون إلى العلاقة بين الصنائع وال عمران البشري نظرة علمية واقعية، فهو يربط بين الصنائع وال عمران البشري، حيث يرى أن لا عمران بلا صنائع، وبالمقابل لا صنائع بلا عمران، أي أن كليهما يؤثر في الآخر تأثيرا أساسيا. وقد أفرد ابن خلدون لهذه المسألة عدة فصول جاءت في الجزء الثالث من كتاب المقدمة. تدل على إدراكه العميق لسوسيولوجيا الصنائع وأهميتها في المجتمع من خلال المقولات التالية:

. وهذه مقولة ثابتة

في تفكيره، فالفكرة العامة لديه تظهر في الربط بين كثرة العمران وكثرة الصنائع، فمقولته بأن الصنائع تكتمل بكمال العمران الحضري وتكثر بكثرتة،^(٤٤) تؤكد على حقيقتين هما، أولا: اكتمال الصنائع بكمال العمران الحضري، وثانيا كثرة الصنائع بكثرة العمران الحضري، أي أنه من الناحية المنهجية اعتبر الصنائع متغيرا تابعا والعمران متغيرا مستقلا، أي أن الصنائع تتبع العمران في الكمال والكثرة.

ويؤكد من جهة أخرى أن الصنائع للكُماليات من متطلبات المدن، أي العمران الحضري، وليس من متطلبات العمران البدوي الذي يكتفي بالصنائع القليلة البسيطة غير المعقدة كالنجارة، والحداة وما شابه ذلك، أي أن تنوع الصنائع، وجودتها لا تتوفر إلا في

(٤٤) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٢٤.

:

العمران الحضري، والسبب في ذلك أن زيادة الطلب على هذه الصناعات يؤدي إلى التفنن في إتقانها. فهو يقول في ذلك: "وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصناعات للتأنيق فيها حينئذ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوافر دواعي الترف والثروة، وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصناعات إلا البسيط، خاصة المستعمل في الضروريات ... وإذا وجدت هذه بعد، فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة؛ إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها."^(٤٥)

ويستنتج من ذلك، تأكيداً بوضوح على أن الصناعات في حياة البداوة لا تقصد لذاتها، وإنما تقصد لتحقيق ضرورات الحياة؛ ذلك أن الفرد في العمران البدوي يكتفي بالحد الأدنى منها فتكون صناعاته بسيطة ومحدودة، وغير متنوعة، ولكن حينما تتحول حياة البداوة إلى حضارة، أي الانتقال من العمران البدوي إلى العمران الحضري، فإن الصناعات تزدهر ولا تصبح مرتبطة بضرورات الحياة فحسب، بل تتعدى ذلك إلى الرياش (الكماليات) والتأنيق، ويسعى الناس إليها كهدف في حد ذاتها وبذلك تصبح على درجة عالية من الإتقان.^(٤٦)

يلاحظ من ذلك أن ابن خلدون يعلق أهمية كبرى على العامل الديموغرافي بوجه عام في علاقته بالصناعات، حيث إن كثرة السكان تؤدي إلى كثرة الصناعات وتقدمها، وبالتالي زيادة الثروة، فهو يرى ما رآه جان بودان J. Boudin حيث يقول: "لا ثروة إلا بالرجال". وموقف ابن خلدون من العامل الديموغرافي تفاؤلي بعكس الموقف التشاؤمي الذي عرف به مالتوس T. Malthus فيما بعد.^(٤٧)

غير أن العامل الديموغرافي عند ابن خلدون لا يعمل وحده، وإنما يضيف إليه عامل التنظيم الذي هو عامل من عوامل الإنتاج، كما هو معروف، ولا ينشأ التنظيم إلا

(٤٥) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٢٤ - ٩٢٥.

(٤٦) الحسيني وآخرون، تاريخ الفكر الاجتماعي، ١٠٩.

(٤٧) عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد بن والي (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٧م)، ١٧٧.

بازدهار العمران البشري، وخاصة لدى العمران الحضري دون غيره، أي أنه يقيم علاقة قوية بين التعمير وتنظيم العمل من خلال عدة مظاهر، منها تقسيم العمل الاجتماعي، ولا شك أن من شأن ذلك أن يؤدي إلى كثرة الصنائع وتقدمها.

وهذا يتفق مع ما ذهب إليه ماكس ويبر M. Weber في أهمية التنظيم في الإنتاج من خلال مؤلفه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، حيث بين أن الرأسمالية الرشيدة تعتمد على تنظيم العمل بالإضافة إلى الكفاءة من أجل زيادة الإنتاج، في حين أن ابن خلدون قد أشار إلى أهمية التنظيم من خلال التعاون وتقسيم العمل بين الأفراد كما قال بذلك أميل دوركايم فيما بعد في مؤلفه: "تقسيم العمل الاجتماعي".^(٤٨)

ولاشك أن اختلاف النظرة والأهمية للتنظيم بين ويبر وابن خلدون يأتي من اختلاف النظام الاقتصادي الذي نشأ فيه كل منهما، فابن خلدون نشأ في ظل نظام الطوائف الحرفية في حين أن ويبر نشأ في ظل نظام المصنع الحديث.^(٤٩)

إن النتيجة المنطقية في تعليقه لنمو الصناعة بزيادة السكان إنما يدل على وعي ابن خلدون بأهمية الموارد البشرية في عملية التنمية، وازدهار الحضارة بزيادة السكان تعني زيادة الحاجات، فتنشأ أعمال وصناعات جديدة، وتزدهر هذه الصناعات وتكثر.

وعلى العكس من ذلك، فإن المجتمعات القليلة السكان تقل فيها الصناعات، ويعزل ذلك قائلًا: "لهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة، ولا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها، ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل"،^(٥٠) أي أنه يعني أن تزايد السكان يؤدي إلى تقسيم العمل، وهذا

(٤٨) لمزيد من التفصيل حول أهمية التنظيم وتقسيم العمل انظر:

E. Durkheim, *De la Division du Travail Social* (Paris, P.U.F., 1960), 37-40.

(٤٩) لمزيد من التفصيل حول مفهوم ويبر للتنظيم، انظر: M. Weber, *The Protestant Ethic and the Spirit of*

Capitalism (New York: Scribner, 1958)؛ محمد علي محمد، علم اجتماع التنظيم (الإسكندرية: دار

المعرفة الجامعية، ١٩٩٨م)، ٢٧ - ٦٥.

(٥٠) ابن خلدون، المقدمة، ٩٢٣ - ٩٢٤.

:

بدوره يؤدي إلى زيادة الإنتاج ويصاحبه زيادة في المداخيل للأفراد، مما يزيد في حجم الطلب، والإقبال على استهلاك السلع، مما يؤدي إلى إنتاج صناعات جديدة. لذلك فالمجتمعات الكثيرة السكان تكثر فيها الأعمال بحيث تؤدي إلى رقيها ورفاهيتها؛ أما المجتمعات قليلة السكان، فتكون رفايتها قليلة للسبب نفسه.^(٥١)

ومن جهة أخرى، يرى جاستون بوثول G. Bouthoul في هذا المجال أن ابن خلدون من خلال تأكيده على أن السكان يكونون على صلة وثيقة بإنتاج المجتمع، يحمل على الاعتقاد بإمكان أن ترد مقولاته إلى المذاهب التساكنية التي تجعل من السكان سبب الرزق.^(٥٢) غير أن نظرية ابن خلدون ليست وحيدة الجانب، حيث يجعل فيما بعد السكان تابعين للرزق؛ أي أن كثرة الرزق تؤدي إلى كثرة السكان.^(٥٣) وعليه يستدل من ذلك أن العلاقة جدلية، أي تأثيرية بين المجتمع والصنائع. وهذه مسألة مهمة من مسائل علم اجتماع العمل اليوم.

وعموماً، يتبين من مجمل هذه المقولات تأكيد ابن خلدون على الترابط القوي، وربما الوجودي بين الصنائع والمجتمع، أو بالأحرى العمران الحضري، حيث يربط بين ازدهار الصنائع وتقدمها بكثرة العمران، وهذه النظرية تتفق مع ما ذهب إليه الفارابي في تقسيمه للمجتمعات، حيث قسمها إلى مجتمعات كاملة ومجتمعات ناقصة، فالمجتمعات الناقصة - قليلة السكان - عنده هي مجتمعات قليلة الصنائع، والإنتاج عموماً.^(٥٤) والخلاصة العامة التي يمكن استخلاصها من مقولات ابن خلدون هي: أن لا صنائع بلا عمران حضري، ولا عمران حضري بلا صنائع، وهذا المفهوم يتفق مع

(٥١) محمود عبد المولى، ابن خلدون وعلوم المجتمع، ط ٢ (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠ م)، ٦٣.

(٥٢) جاستون بوثول، ابن خلدون فلسفته الاجتماعية، تعريب عادل زعيتر، ط ٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٤ م)، ٥٢.

(٥٣) بوثول، ابن خلدون، ٥٢.

(٥٤) أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي، دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١ م)، ٢٣٩.

التصور أو المدلول الاقتصادي للتحضر الذي ينظر إلى التحضر كمرحلة من مراحل التطور الاقتصادي البشري، أي الانتقال من حالة تقوم فيها الحياة الاجتماعية على أساس العمل أو الإنتاج الأولي كالصيد والزراعة إلى حالة تقوم فيها الحياة على أساس العمل الصناعي والإداري والتجاري والخدمات، أو بعبارة أخرى، الانتقال من اقتصاد المعيشة إلى اقتصاد السوق،^(٥٥) أي أنه بمفهوم ابن خلدون لا يقوم العمران الحضري إلا على الصنائع، كما أن الصنائع لا تقوم إلا في ظل العمران الحضري.

() يعرف ابن

خلدون الحضارة قائلا: "هي التفرغ في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تأتق من أصنافه، وسائر فنونه، من الصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل."^(٥٧) كما يعتبر الحضارة غاية العمران ونهاية عمره، وأنها مؤذنة بفساده.

ويؤكد ابن خلدون ثانية هنا على حقيقة أخرى، وهي أن رسوخ الحضارة يؤدي إلى رسوخ الصنائع، وخاصة إذا امتد أمد الحضارة، فإن الصنائع تزداد ثباتا بانتقالها من جيل إلى جيل، فالصنائع تورث - كما هو معروف - من الصانع لابنه ثم إلى حفيده، وهكذا... ويضرب مثلا بالأندلس التي امتدت حضارتها مدة طويلة، مما أدى إلى استحكام الصناعة فيها؛ ويعلل ذلك قائلا: "والسبب في ذلك ظاهر، وهي أن كلها عوائد للعمران وألوان، والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار، وطول الأمد، فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال، وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها."^(٥٨)

(٥٥) السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، مداخل نظرية (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية،

١٩٨٨م)، ١٢٦.

(٥٦) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٢٦.

(٥٧) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٧٦.

(٥٨)

:

ولا شك أن رسوخ الحضارة يقترن برسوخ الدولة نفسها من حيث القوة وطول بقائها، فرسوخ الحضارة في الأندلس كان مع رسوخ الدولة الأموية فيها، ومن قبلها دولة القوط ومن بعدها دولة الطوائف، ويستشهد ابن خلدون أيضا بما كان سائدا من رسوخ للحضارة في العراق والشام ومصر. وحتى في تونس التي كانت تعتبر حضارتها دون حضارة الأندلس فإن الدول السابقة جميعها كانت قد ترسخت حضارتها، وبالتالي كانت صنائعها متقدمة نتيجة لذلك، أي أنه برسوخ الدولة ترسخ الحضارة، وبالتالي ترسخ الصنائع، وهذه نظرة علمية صائبة إلى حد كبير، والدليل على ذلك ما هو سائد اليوم لدى الدول المتقدمة، فإن صنائعها مزدهرة وقوية.

ويقرر من جهة أخرى حقيقة مهمة قائلا: "إن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع."^(٥٩) وهذه نتيجة منطقية، فإذا حل بالدولة خراب فإن الصنائع ستنقص إلى أن تنتهي بانتهاء الحضارة التي هي من خصائص العمران الحضري كثير السكان، فالدولة وطبيعتها عند ابن خلدون تحتل مكانة مهمة بالنسبة لازدهار الصنائع أو تخلفها. كما سيأتي توضيحه، أي أن ابن خلدون يربط هنا مصير الصنائع بمصير الحضارة، فإذا انهارت الحضارة انهارت الصنائع، وحينئذ يعود الناس إلى ضرورات الحياة، أي أن تغير حالة الصنائع وتناقصها إنما يتمشى وحضارة المجتمعات وزوالها، فهذا قانون ينسجم مع ما يقول به ابن خلدون في حتمية التغير، وأن الحضارة نهاية العمران، لذلك فإن الصنائع ستنتهي بانتهاء العمران على الأغلب. وهنا يبدو بوضوح أثر المجتمع أو بالأحرى العمران الحضري على الصنائع، وهذا صحيح خاصة في العصر الذي عاشه ابن خلدون، وهو القرن الرابع عشر الميلادي.

. يرى ابن خلدون "أن الصنائع إنما

تستجد، وتكثر إذا كثر طالبها."^(٦٠) وهنا يربط بين عملية الطلب، وعملية العرض

(٥٩) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٢٨.

(٦٠) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٢٨.

للصنائع ، حيث يرى أن زيادة الطلب على الصنائع تؤدي إلى زيادة العرض من خلال كثرة الإنتاج وجودته ، حيث إن زيادة الطلب دلالة على زيادة الاستهلاك للسلع ، مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج ، وذلك نتيجة لكثرة السكان . فهنا يربط ابن خلدون بين زيادة السكان ، وكثرة الصنائع ؛ ذلك أنه بكثرة الصنائع يكثر العاملون بها ؛ مما يؤدي إلى التفتن في إنتاجها ، وزيادة الأرباح ، أي تقدم المجتمع في نهاية الأمر . وكل ذلك لا يقع إلا في العمران الحضري الذي يتميز بكثرة السكان . وفي حالة قلة السكان فإن السلع لا تنفق ، وحينئذ يقوم صاحبها بتركها ، وفي هذا يقول : " وإن كانت الصناعة مطلوبة ، وتوجه إليها النفاق (بيعت كلها) ... فيجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ، ليكون منها معاشهم ، وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ، ولا يوجد قصد إلى تعلمها ، فاختصت بالترك وفقدت للإهمال." (٦١)

ويرى ابن خلدون من جهة أخرى ، أن قيمة الصناعة تدل على قيمة صاحبها مستشهدا بقول الإمام علي رضي الله عنه : " قيمة كل امرئ ما يحسن." (٦٢) ويشير إلى أن تدخل الدولة في الصنائع إنما يفيد هذه الصنائع ، ولكن لا يعني أن ابن خلدون ذو نزعة اشتراكية وإنما قصد أن الأسواق تكون مفتوحة أمام الجميع فيقبل الأفراد على شراء السلع المتقنة والتي هم بحاجة إليها ؛ أي أنه يرى حرية البيع مع حرية الشراء ، ونظرا لكون ثروة المجتمع (المال) في معظمها لدى رجال الدولة (في عصر ابن خلدون) ، يقبل هؤلاء على شراء السلع مما يساعد في إنفاقها من الأسواق ، فيقوم الصانع بإنتاج المزيد ، مما يساهم في زيادة ثروة المجتمع حيث يقول : " وهو أن الصنائع وإجاداتها إنما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها... لأن الدولة هي السوق الأعظم." (٦٣)

(٦١) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٢٨ .

(٦٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٢٨ .

(٦٣) : .

:

ويستنتج مما تقدم، أن ابن خلدون يعطي أهمية للدولة في مدى تقدم الصنائع أو تخلفها. فتزدهر الصنائع بازدهار الدولة وتضعف بضعفها إلى أن تنزول... ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة: أولا: ما يتعلق بطبيعة الملك والدولة؛ ذلك أن الترف من طبيعة الملك، فإذا تغلبت دولة من الدول على غيرها، وملكت، تجاوز الناس ضرورات العيش إلى رفته، وترفه فتكثر الصنائع، ويكثر العمران، فيأخذ الناس بالتفاخر بصنائعهم المختلفة. ثانيا: لأن من طبيعة الملك النزعة والسكون لتحصيل ثمراته، فتهتم الدولة ببناء الآثار وتشبيد المباني والمصانع، فتكثر الأموال وتزدهر الصناعات. ثالثا: لأن الصنائع وإجادتها تطلبها الدولة نظرا لاملاكها للثروة كما تقدم.

ولما كانت الدولة تتبوأ هذه المكانة المهمة في التحكم في الصنائع كان من الطبيعي - إذا ضعفت الدولة أو انقضت - أن تتراجع الصنائع فيها، وإذا تحولت من عاصمة إلى أخرى تحولت معها الصنائع، وهذه النتيجة تنفق مع فكرته السابقة في أن الصنائع لا تزدهر إلا باستقرار الدولة، والجدير بالذكر أن الدولة التي يقصدها ابن خلدون هي الدولة الحضرية التي تكون قد اجتازت مرحلة البداوة.^(٦٤)

ومن جهة أخرى يؤكد ابن خلدون على حقيقة مهمة تتعلق بارتفاع أسعار السلع المنتجة نتيجة زيادة الطلب عليها، فيزيد من أثمانها. وهذا الإقبال الكبير لا يتأتى إلا في ظل العمران الحضري كثير السكان، ويعمل ذلك بحاجة الأفراد إلى الترف من جهة، واعتزاز العامل بعمله نتيجة الإقبال على إنتاجه مع كثرة الطلب، وبالتالي زيادة الأسعار، ويعمل ذلك قائلا: "وأما الصنائع والأعمال أيضا في الأمصار الموفورة العمران، فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة، الأول: كثرة الحاجة لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه، والثاني: اعتزاز أهل الأعمال بخدمتهم... والثالث: كثرة المترفين... فيعتز العمال والصنائع وأهل الحرف، وتغلو أعمالهم، وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك."^(٦٥)

(٦٤) بدوي، علم اجتماع المعرفة، ٥٠.

(٦٥) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٦٤.

ولاشك أن ابن خلدون قد تنبه إلى حقيقة مهمة، وهي أن العامل أخذ يعتز بعمله، وأرجع ذلك إلى أن إنتاجه أصبح ذا قيمة عالية (ارتفاع الأسعار)، وبالتالي زيادة ربحه وتحسن حالته الاقتصادية نتيجة لذلك، فالحافز المادي لديه أسهم في فعالية الإنتاج. وهذه مقولة يؤيدها العديد من علماء الاجتماع، أمثال: شنايدر E. Schneider، وفريدمان G. Friedmann، وميللر D. Miller، وغيرهم.^(٦٦)

كما يؤكد ابن خلدون - انسجاما مع النتائج السابقة - على أن كثرة الطلب على الصنائع وخاصة الكماليات منها تؤدي إلى إتقانها، وإلى إيجاد صناعات جديدة لم تكن معروفة من قبل، فبتزايد حاجات الأفراد تتزايد الصنائع نتيجة الاختراعات، وذلك في ظل العمران الحضري - كما هو معروف - وهنا يقول: "وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكماليات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجاداتها، فكملت بجميع متمماتها، وتزايدت صنائع أخرى معها."^(٦٧) ويؤكد أيضا: "وبقدر ما يتزايد من أصنافها تتزايد أهل صناعتها... ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات حذق أولئك الصناع في صناعتهم، ومهروا في معرفتها."^(٦٨)

. وهذه حقيقة مؤكدة عند ابن خلدون

تتماشى مع ما قدمه في السابق انطلاقا من مبدأ الربط بين الصنائع والعمران، وهي نظرية - كما أشرنا إليها - لم يسبقه إليها مفكر من قبل.

والمقولة الحالية هي نتيجة منطقية تنسجم مع النظرية العامة له في هذا المجال، فهو يرى "أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع."^(٦٩) ويقصد هنا أن كثرة

E. Schnieder, *Industrial Sociology* (New York: McGraw -

(٦٦)

Hill, 1971), 219-42.

(٦٧) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٢٥.

(٦٨) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٨٧٢.

(٦٩) ابن خلدون، المقدمة، ٣: ٩٢٨.

:

السكان تؤدي إلى كثرة الصنائع ، وأن قلة السكان تؤدي إلى تناقص الصنائع ، وقتلتها عموما ، والسبب في ذلك أن نقص السكان ، أو بتعبير ابن خلدون فساد المجتمع ، أي تحوله إلى العمران البدوي ، يعني قلة البيع نتيجة نقص الطلب على الصنائع ، ذلك أن المجتمع البدوي يكتفي بالضروري من المعاش دون الكمالي ، مما يؤدي إلى تناقص المهن ، والحرف في الصنائع ، وبالتالي تناقص الترف وانعدامه. وفي هذا يقول : "وإذا ضعفت أحوال المصر ، وأخذ في الهرم بانتقاص عمرانه ، وقلة ساكنه ، تناقص فيه الترف ، ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم ، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف ... ولا تزال الصناعات في التناقص مازال المصر في التناقص إلى أن تضحل."^(٧٠)

ويتبين من ذلك أن التناقص عنده هو تناقص السكان ، وبالتالي تناقص العمل الإنساني ، أي تناقص الإنتاج.^(٧١) ولاشك أن عنصر السكان وبالتالي عنصر العمل يؤثر في عملية الإنتاج عموما ، وهنا يعتقد ابن خلدون أن العمل هو العامل الحاسم في ذلك ، غير أنه من المعروف أن عنصر العمل يشكل أحد العوامل الأربعة المعروفة بعوامل الإنتاج ، وهي العمل ورأس المال والطبيعة (المواد الخام) ثم التنظيم. ومع ذلك يكفي ابن خلدون أنه ربط الإنتاج بوجه عام بالسكان كثرة أو قلة كما تبين. ولاشك أن مجمل الطروحات السابقة التي قدمها ابن خلدون تبدو جديدة نوعا ما بالنسبة للعصر الذي عاش فيه أو سبقه ، حيث إن أحدا قبله لم يلحظ بأن ديناميكية تقدم الصنائع مرتبطة ارتباطا وثيقا بديناميكية تقدم المجتمع. فالمجتمع الذي يبلغ درجة حضارية معينة تصبح له متطلبات لا تفي بها إلا الصنائع ، فتكثر هذه الصنائع وتؤثر في حضارة المجتمع من جديد ، وهكذا دواليك ، فالمعادلة الجدلية التي يطرحها ابن خلدون في هذا المجال تصبح كالآتي : الحضارة ← → الصنائع ؛ أي أن كلا من الحضارة والصنائع يؤدي دور المؤثر والمتأثر ، على اعتبار أن للحضارة مفهوما خاصا لدى ابن خلدون ، فهي الترف نتيجة إحكام الصنائع

(٧٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣ : ٩٢٨ - ٩٢٩ .

(٧١) مزيان ، النظريات الاقتصادية ، ٣٤٠ .

وإتقانها، أي أنها تعني كثرة الصنائع وتنوع استخدامها لدى المجتمع - كما تبين سابقا- فالصنائع تؤثر في مستوى الحضارة وهذه الحضارة تتطلب تنوع الصناعة وكثرتها. وقد أكد على أن الصنائع تعد من خصائص العمران الحضري، أي المجتمع المدني دون أن يهمل المجتمع البدوي من هذه الناحية، حيث إن للمجتمعات البدوية صنائعهما، ولكن بالقدر الذي يتطلبه نمط حياتها البسيطة مما يجعل صنائعهما قليلة.^(٧٢)

في ضوء ما تقدم، تبين أن ابن خلدون قدم نظريته حول الصنائع في بعدها السيوسولوجي، فالصنائع تعني عنده كل عمل يقوم به الفرد سواء أكان فكريا أو يدويا، فهي تعني المهن والحرف التي يقوم بها الإنسان. فالعمل عنده صناعة، وخاصة الأعمال المنتجة ذات النفع.

وقد بين أن العمل هو سبب الرزق والكسب والمعاش، وبالأحرى الأساس في بقاء المجتمع واستمرار وجوده، وأن اختلاف العمل يؤدي إلى اختلاف العمران عند ابن خلدون. ومن هنا كان تقسيمه للعمران إلى: عمران بدوي وعمران حضري. وتحتل مقولة العمل عنده مكانا بارزا في تفكيره. وهو يقسم الأعمال إلى نوعين منها الضروري ومنها الكمالي، وذلك حسب إشباع حاجات الأفراد المختلفة.

وقد أكد على التعاون في العمل لنتائجه الإيجابية من حيث تحقيق مبدأ التضامن، ووفرة الإنتاج، وأن تقسيم العمل يعد نتيجة ضرورية في ظل العمران الحضري، والمجتمع المتقدم عموما. وقد مجد ابن خلدون العمل اليدوي على عكس ما ذهب إليه أفلاطون في هذا الشأن، وهو ينطلق من منظور إسلامي في هذا المجال، وقد أعطى العمل أهمية خاصة في كونه الأساس لقيم الأشياء. وبذلك يكون قد سبق العديد من المفكرين الاقتصاديين القائلين بنظرية العمل.

(٧٢) بدوي، علم اجتماع المعرفة، ٤٨.

:

أما نظريته حول الصنائع ، فقد عرّف الصنائع بأنها كل مهنة أو حرفة يقوم بها الإنسان ، ويحقق منها نفعاً للآخرين ؛ ولهذا فالصنائع عنده لا تقتصر على العمل في الصناعة والآلات ، أو ما يعرف اليوم بالتكنولوجيا الصناعية ، وإنما تمتد إلى الأعمال كافة (يدوية أو فكرية).

ولا شك أنه قد أعطى الصنائع بعداً سوسولوجياً مؤكداً على العلاقة الجدلية بينها وبين المجتمع ، فقد بين أن الصنائع تؤدي إلى إكساب الفرد عقلاً ومهارة ، وهي تحتاج إلى علم وتجربة من أجل فهمها وإتقانها ، وهي تعتمد على التراكمات الثقافية الموروثة.

ولقد أدرك ابن خلدون أن الانتقال بالمجتمعات من طور البداوة إلى طور الحضارة يقتضي تطوراً كيمياً ونوعياً في الصنائع ، كما أن التطور في الصنائع يدفع بالمجتمع البشري إلى مزيد من التقدم والتحضر ، كما أنه قد بين أن الصنائع تكثر بكثرة السكان ، كما أنها تقل بقلتهم ، وهي ترسخ برسوخ الحضارة ، فإذا انهارت الحضارة انهارت معها الصنائع ، وعاد الناس إلى ضرورات الحياة ، كما يعود المجتمع الحضري إلى حياة البداوة ، وهنا يقصد ابن خلدون بذلك أن يعيش المجتمع نمط حياة البداوة من حيث قلة الصنائع ، والاكتفاء بالضروري من المعاش ، وغير ذلك ، وهي نظرية ابن خلدون المعروفة في أطوار الدولة والتي تعرف بالتغير الدائري ،^(٧٣) أي أن الصنائع تتقدم بتقدم المجتمعات ، وتتخلف بتخلفها أي بنقصان سكانها وانهايار حضارتها. فالصنائع بالتالي تصبح "هوية" المجتمعات ، وتدل على مدى تقدمها ، فهو يربط بين نشأة الصنائع وتطورها بنشأة المجتمع وتطوره من العمران البدوي إلى العمران الحضري ؛ أي أن نظريته في تغاير الصنائع وتطورها إنما تقوم على اختلاف نوع العمران ، أي باختلاف نوع المعاش المتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية.

(٧٣) لمزيد من التفصيل حول نظرية ابن خلدون في التطور ، انظر : مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الأول (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦م) ، ١٥٦ - ١٦٤ ؛ وانظر : الخشاب ، التفكير الاجتماعي ، ٣٠٧ - ٣١٧ .

ولهذا فهو لم يهمل العنصر الديموغرافي في علاقته بالصنائع ، فكلاهما يؤثر ويتأثر بالآخر ، وهذه مسألة أكد عليها دوركايم بعده بقرون ، فقد اعتبر دوركايم أن كثرة السكان تؤدي إلى التوسع في تقسيم العمل والتخصص فيه ،^(٧٤) وبالتالي يؤدي إلى زيادة الإنتاجية حسب تعبير الاقتصادي آدم سميث من أجل تلبية الحاجات الناتجة عن زيادة السكان. كما أن ابن خلدون لم يهمل عنصر الزمن في تأثيره برسوخ الصنائع من خلال التكرار والممارسة مما يؤدي إلى الجودة والإتقان. كما أنه لم يفصل الأعمال اليدوية عن الأعمال الفكرية ، فكلها صنائع. وبالإضافة إلى ذلك ، فقد نظر ابن خلدون إلى تنوع الصنائع ، وتقسيم العمل بين الأفراد كأساس يربط الأفراد بعضهم ببعض ، ويعبر عن درجة نمو المجتمع من الناحية الحضارية.

وعموما ، فقد كشف ابن خلدون أن تقدم المجتمعات يأتي بتقدم الصنائع فيها ، ولا شك أن جملة تلك الأفكار تعد مقدمة لولادة ما يعرف اليوم بعلم اجتماع العمل. لقد أعطى لمقولة العمل والصنائع بعدا سوسيولوجيا ، فيكون بذلك قد سبق غيره من المفكرين الاجتماعيين في هذا المجال ، وهي أفكار إذا أخذت في سياق ظرفية المكان والزمان الذي

(٧٤) هناك اتجاهات ثلاثة في تقسيم العمل من حيث :

١- تفسير النتائج المترتبة على تقسيم العمل في الأنساق الاقتصادية ، وهذا المفهوم استخدمه آدم سميث في كتابه "ثروة الأمم".

٢- تفسير عوامل التطور الاجتماعي بالنظر إلى تباين الوظائف والأدوار التي يشغلها الأفراد في المجتمع ، حسب مفهوم دوركايم ، وقد جاء ذلك في كتابه "في تقسيم العمل الاجتماعي" معتبرا تقسيم العمل عاملا في التغيير الاجتماعي ، وهذا يتفق مع ما قدمه ابن خلدون في هذا المجال.

٣- تفسير ظواهر تجميع الواجبات وتركزها في نسق محدد من الإنتاج ، بما في ذلك تبسيط الأعمال ، وخاصة في الإنتاج الآلي ، وجاء هذا المفهوم عند فريدمان Friedmann وسكوت Scott .

ولمزيد من التفصيل انظر : كمال الزيات ، بناء النظرية في علم الاجتماع ، نموذج نظرية تقسيم

العمل (القاهرة : مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٩١م) ، ٦٣ - ٦٤ .

:

عاش فيه ابن خلدون (القرن الرابع عشر ميلادي) تعد أفكارا ذات أهمية كبيرة، ومقدمة
لنشأة علم اجتماع العمل الذي يعد فرعاً من فروع علم الاجتماع.

وحقيقة إن ابن خلدون لم يتعرض في نظرياته السابقة حول العمل والصناعات إلى
مقولات مرتبطة بها كمقولات علاقات الإنتاج والتقسيم الطبقي، والاغتراب، والتبعية
وغير ذلك من الظواهر المرتبطة بالصناعات، والسبب أنها كانت قد جاءت على إثر الثورة
الصناعية فيما بعد. ولهذا فإن أفكاره تفهم وتقيم في إطارها التاريخي والاجتماعي، وهي
أفكار تنم عن واقعية علمية تقوم على دراسة الظواهر المشاهدة في المجتمعات التي عاش
فيها دون أن يستوحى ذلك من مبدأ فلسفي، أو يتأثر برأي سابق كما فعل أوجست
كومت، ولهذا كانت قوانينه أقوى أساساً وأقرب إلى طبائع الأمور، وإلى الواقع من
القوانين الخيالية التي انتهى إليها أوجست كومت.^(٧٥)

ولقد تبين أن للعمل والصناعات أبعاداً اجتماعية واقتصادية في فكر ابن خلدون،
ويشكلان محورا أساسيا في تفكيره، حيث كان حريصاً على إبراز أهمية العمل والصناعات في
المجتمع وإبراز العلاقة المتبادلة بين المجتمع والصناعات. إن ما أنجزه في هذا المجال يعد نواة
ومساهمة علمية معتبرة في مجال علم اجتماع العمل. وإذا كانت مهمة علم اجتماع العمل
دراسة العلاقة المتبادلة بين الأعمال المختلفة والمجتمع، ثم التوصل إلى قوانين في هذا المجال،
يكون ابن خلدون بذلك قد وضع الأسس العلمية لهذا العلم الذي يعد فرعاً من فروع علم
الاجتماع، وهو إدراك مبكر يسبق إدراك غيره من المفكرين، ولهذا يعد بحق رائداً في علم
اجتماع العمل.

(٧٥) علي عبد الواحد وافي، الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون وأوجست كومت (القاهرة: مطبعة لجنة البيان
العربي، ١٩٥١م)، ٢٠.

Ibn Khaldoun's Sociology of Occupations: A Study in the Sociology of Work

Mohamed Abdelmoula El-Daks

Associate Professor, Department of Sociology,

Faculty of Humanities & Social Sciences, University of Jordan, Amman, Jordan

Abstract. This study presents Ibn Khaldoun's theory of occupations and their social and economic dimensions together with their regulations as presented in his book *The Muqaddima*. According to him, an occupation is any work an individual does so as to earn a living. He thus considers all crafts and professions as occupations. He looks at occupations from a functional point of view with respect to their importance in the development of societies. He also looks at them from a dynamic point of view regarding their reciprocal relationship with society.

Ibn Khaldoun gives the term "work" a special significance in the social and economic aspects. He divides occupations according to their importance, their fields, and the extent to which they satisfy the needs of individuals. He also emphasizes that human development depends on occupations and that variation in occupations leads to variations in human societies. Hence, he divides societies into urban (*umran hadari*) and rural (*umran badawi*). He presents the necessary conditions for the development and flourishing of occupations. Finally, this study reveals Ibn Khaldoun's early understanding of the sociology of occupations, which makes him one of the pioneers in the field of the sociology of work.